ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

حق المعنى الشريف للفظ الشريف
رؤية العلماء العرب القدامى لعلاقة اللفظ بالمعنى

د. زيبوش فاطمة الزهراء
قسم علوم اللسان
جامعة الجزائر 2

ملخص

لم يكن اهتمامنا في هذه الدراسة مواجهة إشكالية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم من منظور تصنيفي، بل اعتمدنا مبدأ الملاءمة بين اللفظ والمعنى لوصف الكلام بليغا.

لقد كان هذا المقياس من أهم المقاييس التي بنى عليها نقادنا القدامى قسما كبيرا من نقدهم، فلا يوصف الكلام عندهم بالبلاغة ولا يحقق التأثير والاستمتاع إلا إذا بني بعضه على بعض.

ولم يقف الجرجاني عند الألفاظ وحدها أو المعاني وحدها وإنما ربط بينهما ربطا وثيقا بإدخاله عنصرا ثالثا في النقد الأدبي وهو مراعاة الصورة الأدبية التي تحدث باجتماع اللفظ والمعنى، مدركا ما أدركه النقاد في عصرنا الحاضر من صعوبة تقسيم العمل الأدبي إلى صورة وفكرة لأنهما في الأسلوب كل لا يتجزأ و وحدة لا تتعدد، وليس أدل على ذلك من أنك إذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة وإذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة.

شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد والبلاغيين العرب القدامى، فتناولوها بالدراسة وذهبوا فيها مذاهب متباينة، بين مناصر ومعارض ومتوسط بينهما، فبحثوا في العلاقة التي تربط اللفظ بمعناه، وفي الألفاظ وهيئاتها والمعاني وأحوالها، وحددوا أوصافا للمعنى وأخرى للفظ، فتعرضوا لما ينبغي أن يتوافر لكل منهما من أسباب الجودة ومظاهر الإتقان.

وتعتبر صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلي من أقدم النصوص البلاغية التي عالجت قضية اللفظ والمعنى وحددت أوصافا لكل منهما، وأمدت الشاعر والأديب بالتوجيهات التي يسير على هداها في كل حال.

ومما جاء في هذه الصحيفة: "وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف للفظ الشريف، ومن

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما...فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت"(1).

تدل هذه العبارة على أن بشرا يساوي في المنزلة بين اللفظ والمعنى، ويحفظ لكل منهما حق العناية به.

وكان بشر بن المعتمر من أوائل الذين تنبهوا إلى وجوب مطابقة الكلام لمقتضى الحال. فالعبرة عنده ليست بشرف اللفظ ولا بشرف المعنى، وإنما مدار الشرف هو مراعاة المقام والموازنة بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين، فهو من قال: "فتجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات"(2).

يفهم من كلام بشر بن المعتمر في هذا الصدد، أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال لا تتم إلا إذا وضع المتكلم في حسبانه الموضوع الذي يتكلم فيه، بحيث يأتي كلامه متلائما معه مسايرا له، كما يضع في حسبانه المخاطب الذي يتوجه إليه بكلامه، فيكيف تعبيره اللغوي وفق الحال التي عليها هذا المخاطب، من علم بالموضوع أو جهل به أو إنكار له.

ولقد سيطرت نظرية الفصل بين اللفظ ومعناه على البلاغيين والنقاد القدامى، فشرّعوا لكل عنصر مقاييس للجودة والرداءة، وحددوا لكل طرف أوصافه الخاصة به التي تزيده بهاء وحسنا، أو قبحا وخشونة. وتوسّع البلاغيون في نظرتهم للألفاظ وعلاقتها بمعانيها، فتحدثوا عن الألفاظ ومعانيها وقالوا: "فهناك اللفظ العذب، واللفظ القوي، واللفظ الرقيق المستحب، واللفظ القلق المستكره، ومن الألفاظ ما يحسن في الرثاء ولا يملح في المديح، ويستحب في النسيب ويقبح في الرثاء أو الفخر أو المدح، وفي المقابل هناك المعنى العميق والمعنى الخفيف، والمعنى البعيد والمعنى السخيف والمعنى الجزل، فلكل مقام مقال"(3).

ولا أدل على هذا التقنين البلاغي لكل من اللفظ والمعنى من قول الجاحظ: "أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا، وأعاره البليغ مخرجا سهلا، صار في قلبك أحلى ولصدرك أملا، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وأكسبت الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري"(4).

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

وإذا تتبعنا آراء العلماء على اختلاف بيئاتهم العلمية نجد فكرة الفصل مسيطرة عليهم وسائدة في تصورهم منذ البداية، وفي مقدمة هؤلاء الجاحظ باعتباره أول بلاغي وناقد أثار جدلية اللفظ والمعنى بمقولته: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير"(5).

ورأى ابن طباطبا أن للشعر أدوات يجب إعدادها قبل نظمه، فقال: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه... ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوّف بأحسن التفويف، وكالنقاش الذي يصغ الأصابع في أحسن تقاسيم نقشه، وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق"(6).

وأوّل البلاغة عند العسكري اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب متميز اللفظ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويصفيها كل التصفية، فهو من قال: "واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا... ويكون لفظه موفقا، ومعناه نيرا واضحا"(7)

وهو من تكلم عن الحد الوسط وهو المساواة وعرّفها بأن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها عن بعض، يقول العسكري: "كأن ألفاظه قوالب لمعانيه"(8).

وقضية اللفظ والمعنى من القضايا التي أثارها ابن رشيق، ورصد اختلاف النقاد والشعراء بشأنها، وعالجها في موضع مستقل من عمدته في ضوء آراء غيره ممن كانوا ينتصرون إلى اللفظ أو إلى المعنى، وفي ضوء مذاهب عدد من الشعراء أيضا. ويتضح أنه فحص تلك الآراء والمذاهب فحصا جيدا واستخلص منها رأيا يقوم على الارتباط التام بين اللفظ والمعنى لا يلمح فيه أثر لتناقض أو تردد أو انحياز لأي من الجانبين.

فكل من اللفظ والمعنى عنده ضروريان فهو يقول: "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهُجنه عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشّلل والعَوَر وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعنى كلهُ وفسد بقي اللفظ مَوَاتاً لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

في رأي العين، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى، لأنا لا تجد روحا في غير جسم البتة"(9).

وحسب ابن رشيق فإن عبد القاهر الجرجاني رأى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى جمال اللفظ ولا إلى جمال المعنى وإنما يرجع إلى خصائص في أسلوبه وهذه الخصائص هي النظم -توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يقصدها البليغ-، فهو من قال: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئا يتبعه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه" (10).

وتتناول فكرة النظم عند عبد القاهر جميع صور الكلام المختلفة للتعبير عن صورة المعاني المختلفة، على نحو تكون فيه المعاني مصورة تمام التصوير، لا غموض فيها ولا إبهام، فهو يقول: "بان بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق، بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك"(11).

ويربط عبد القاهر مفهوم الفصاحة بالنظم والتأليف والترتيب، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم الذي ينتظم به المعنى: " فالنظم عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة، فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش والوشي"(12).

أما ابن الأثير فكان من أكبر المتأثرين بعبد القاهر الجرجاني في قضية اللفظ والمعنى، بدليل قوله الذي لا يخرج في شيء عما جاء به الجرجاني في هذه القضية. يقول: " فالعرب إنما تحسّن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها. فالألفاظ إذا خدم للمعاني، والمخدوم لاشك أشرف من الخادم"(13).

وفي السياق نفسه يطرح ابن جني التصور ذاته ويقول: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها، وحَمَوْا حواشيها وهذّبوها، وصقلوا غُرُوبها وأرهفوها، فلا تَرَيَنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها"(14).

وفي باب الردّ على من ادّعى على العرب عنايتَها بالألفاظ وإغفالَها المعاني يقول صاحب الخصائص: "فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لمّا كانت

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

عنوان معانيها، وطريقا إلى إظهار أغراضها، ومراميها، أصلحوها ورتّبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد"(15).

ونظر الباقلاني إلى اللفظ والمعنى نظرة ترابط لا انفصام، فاللفظ عنده جزء من النظم يتبع المعنى ويسير في ركابه وهو أداة التعبير، وهذا ما ذهب إليه حين قال: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس. وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب..."(16).

تشبه قضية اللفظ والمعنى قديما قضية الشكل والمضمون أو الصورة والمحتوى المعاصرة، ويتفق النقاد القدامى الذين لم يفصلوا بين اللفظ والمعنى مع أحدث المذاهب النقدية التي تعد العمل الفني وحدة مترابطة لا تفصل الشكل عن المضمون، يقول أحمد حسن الزيات: "من رجال الأدب من يرى أن العلاقة بين المعنى واللفظ كالعلاقة بين الجسم والثّوب، لكل منهما على تلازمهما وجود ذاتي مستقل له أوصافه وخصائصه، فالجسم يقوّم بحساب الخلقة، والثّوب يقوّم بحساب الصناعة. والأسلوب هو الهندسة الروحية لملكة البلاغة، وإن البلاغة التي نعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين المضمون والشكل، إذ الكلام كائن حي روحه المعنى وجسده اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفَسًا لا يتمثل، والجسم جمادًا لا يحس"(17).

فالفكرة والصورة كل لا يتجزأ، ووحدة لا تتعدد. وليس أدل على اتحادهما من أنك إذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة، وإذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة، يقول حسان تمام: " لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"(18).

فلا قيمة للفظ إذن من دون معنى، والحديث عن المعنى في أيّ علم من علوم البلاغة لا يكون على حساب اللفظ. كما أنّ الحديث عن اللفظ لا يكون على حساب المعنى. أما عند التذوق الجمالي، فوحدة المعاني والألفاظ، أساس. وما يكون في التراكيب في جمال دلالي لا يقف عند حدود علم من علوم البلاغة، بل تتعاون هذه العلوم في نقل ما يريد المتفنّن إلى المتلقّي مع إحداث الفائدة واللذة المهذبة، والإمتاع السليم.

ومهما يكن من أمر الفصل الذي أقدم عليه العلماء العرب القدامى لعلاقة اللفظ بمعناه، فإن القارئ المنصف للتراث العربي، لا يسعه إلا أن ينظر

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

بإجلال إلى ما تركه هؤلاء العلماء من دراسات لغوية تتصل بهذه الثنائية، فقد نظروا إلى الألفاظ والمعاني وطبيعة العلاقة القائمة بينهما من زوايا مختلفة، وأبعاد متنوعة، مما يدل على أن هؤلاء العلماء، كانوا يمتلكون وعيا نظريا كاملا عنهما، وكان من نتائج هذا الوعي أن تركوا لنا مفاهيم ومصطلحات لغوية ونقدية، يقف الإنسان أمامها بكثير من الإعجاب والعجب. فالإعجاب لأن البلاغي العربي ابتداء بالجاحظ في القرن الثالث الهجري، بل ابتداء بسيبويه في القرن الثاني، وانتهاء بالسكاكي في مطلع القرن السابع، لم يغفل جانبا واحدا من جوانب علم اللغة الحديث كما قدمه دي سوسور في بداية القرن العشرين، بل إن الكثير من التطورات الجذرية التي أدخلت على علم اللغة الحديث، كان هؤلاء البلاغيون العرب قد تطرقوا إليها بطريقة أو بأخرى.

الإحالات والهوامش

1- انظر الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب الكناني البصري)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص1|136.
2- انظر العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، الصناعتين -الكتابة والشعر-، تحقيق علي بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الحلبي، طبعة 1952، ص153.
3- الجاحظ، المرجع نفسه، ص144.
4- نفسه، ص 154.
5- عن بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة في تطوّر الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، دار القلم، دمشق، سوريا، ط7، 1988، ص41.
6- عن رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، دار المعارف، الاسكندرية، ط1، 1993، ص10.
7- العسكري، المرجع نفسه، ص18.
8- عن بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1981، ص211.
9- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج1، ط5، 1981، ص124.
10- نفسه، ص47.
11- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح الإمام الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988، ص45.
12- نفسه، ص359.
13- عن يوسف حسين بكار، بناء القصيدة العربية، دار الإصلاح للطباعة والنشر، الدمام، المملكة العربية السعودية، د. ت، ص162.
14- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب، مركز تحقيق التراث، مصر،ج1، ط3، 1986،ص218.
15- نفسه، ص216-217.

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

16- عن يوسف حسين بكار، المرجع السابق، ص152.
17- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ط2، 1967، ص74.
18- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مطبعة النجاح الجديدة، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ت، ص337.

المنارة للاستشارات